القصة العراقية الحديثة

بقلم الدكتور سهيل إدريس

يعتقد كاتب المقال ان القصة العراقية الحديثة تقف في طليعة النتاج القصصي في الادب العربي المعاصر من حيث انعكاس الاوضاع الاجتماعية في مرآة الادب . وهو يحاول في هذا المقال ، وفي ما سيليه ، درس هذا النتاج وتقويمه واستخراج اتجاهاته الكبرى .

ليس من اليسير على المؤرخ الأدبي ان يكوّن فكرة واضحة عن النتاج الأدبي في العراق قبل نهاية الحرب العالمية الاولى ، فقد كان هـذا النتاج من القلة والاضطراب بحيث يستعصي على التحري والدرس .

على ان ملامح الادب العراقي بدأت تتضح على أثر الهزّة الكبرى التي أحدثتها الثورة العربية في الشرق العربي كله . ولعل العراق كان أسبق البلاد العربية الى تسجيل انعكاسات هـذا الحدث التاريخي في أدبه . وهذه النزعـة التي ميزت الادب العراقي الحديث من ادب سائر البلاد العربية ، ظلت تلازمه ولا تزال حتى الآن حتى أصبحت طابعه الخاص .

وتتجلى هذه النزعة ، اكثر ما تتجلى ، في الادب القصصي الذي أنتجه العراق في الثلاثين عاماً الماضية ، فهو أوفر البلاد العربية الحديثة اهتماماً بالسياسة والاصلاح الاجتماعي ، ونادراً ما تعالج الروايات والقصص العراقية مواضيع تخرج عن هذا النطاق .

ولا يترتب على ذلك ان نعدّ هذا الادب ادب دعاية ، وانما هو يستحق ، على العكس كل تقدير ، لان كتّابه انما يعبرون عن اهتمام الامة بوضعها وحالتها السياسية والاجتماعية ، ولهذا كان الادب العراقي الحديث ولا يزال ، أدباً حياً صادقاً فعالاً ، لانه صادر عن مجتمعه ، وعاكس لمختلف تياراته .

وفي إمكاننا ان نقسم الادب القصصي في العراق ، في هذه الاعوام الثلاثين الماضية ، الى ثلاث مراحل لا نؤرخها بالمقياس الزمني بقدر ما نؤرخها بتطور النزعات والتيارات .

١ . المرحلة الاولى

رائد الادب القصصي في العراق هو محمود احمد السيد . « وقد تفتحت موهبته مع تفتح امل العراقيين بقيام حكم ذاتي ديموقراطي ، تعود السيادة فيه للشعب الذي أراق دمه في كفاحه ضد استعمار العثمانيين والانكليز »[١] والواقع ان «السيد» قد كرّس نفسه لانتاج أدب مقاومة ونضال كان مسوقاً الى إنتاجه بسبب من أوضاع بلاده السياسية والاجتماعية ، ولم يكن بوسعه إلا ان يستجيب لحاجات الشعب الاجتماعية ، ومن هنا كان إسهامه في رسم الطريق الجديد .

أما آثاره الاولى : « في سبيل الزواج » (١٩٢١) و « مصير الضعفاء » (بدون تاريخ) و« التعساء» و«النكبات»، فهي عمل مبتدىء ينقص فنّه التركز والقوة والتجربة الناضجة . وقد نشر بين ١٩٢٣ و ١٩٢٨ مجموعات مقالات يرتفع فيها صوت الثورة .

ومع رواية « جلال خالد » (١٩٢٨) يبدأ محمود احمد السيد ادباً قصصياً وطنياً كان له شأن وقيمة . وهذه الرواية تصوّر نفسية شاب عراقي ينتمي الى ذلك الجيل المتحمس من المناضلين الذين خلقتهم الثورة العربية الكبرى إبان الحرب العالمية الاولى في مختلف الاقطار العربية . ففي عام ١٩١٩ غادر جـلال ، بطل الرواية ، العراق الذي كان يحتله الانكليز وفي نيته ان يتجه الى الحجاز وطن الثورة العربية ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، فقضى حيناً من الزمن في الهند حيث صادق بعض الشبان الهنود الذين كانوا يعملون ، هم الآخرين ، من اجل استقلال بلادهم . وقد ربطته صداقة حميمة بصحفي هندي ثائر أتاح له مجال توسيع آفاقه الفكرية والوقوف على القضايا الاجتماعية والسياسية . وما لبث جلال أن أدرك الظلم الاجتماعي الذي يعانيه الهنود ، فخرج مفهومه الوطني من إطاره الضيق الى مفهوم إنساني واسع . وقد شهد يوماً اشتباكاً عنيفاً بين البوليس والمضربين من العمال ، فذكر انه انما غادر بلاده لانه لم يكن يحتمل ان تُحرم استقلالها ، وأنه لم يشهد فيها يوماً أي إضراب « لانه لم يكن هناك عمال ، وإنما مع الاسف فلاحون فقراء جائعون ، ومع ذلك فهم مستسلمون . » وقد أثر الصحفي الهندي ، وكان اشتراكياً متحمساً ، تأثيراً كبيراً في

١) عبدالقادر البراق « اعلام من الشرق ص ٧٩ » .

جلال الذي ادرك انه يؤمن بمفاهيم كثيرة مغلوطة لم تكن ضرورة عدم تحرر المرأة العربية اقلّها شأناً . وقد ظل يواصل تثقفه ويستمع الى المحاضرات العديدة التي كان يلقيها اساتذة معروفون حتى بلغه نبأ ملأه حماسةً وسعادة، هو نبأ ثورة القبائل العراقية في الشمال ، عام ١٩٢٠ ، على الانكليز ، وكان يحترق شوقاً لكي يعود الى بلاده حيث يشارك في الثورة ، ولكن نبأين اخمدا حماسته ، وهو في طريق عودته : اخفاق الثورة العراقية ، واحتلال الفرنسيين لسوريا . واضطر الى الفرار والهرب ، ولكن الى عالم الكتب هذه المرة ، فعكف على قراءة جميع الكتّاب الاجتماعيين ، الشرقيين والمستشرقين ، وتأمل في حالة العرب المتأخرة فآمن بان تأخرهم مردود الى جهلهم والى الخلافات التي تقسمهم ، والى الرأسماليين الذين يستغلونهم والى السياسيين الذين يخونونهم . وسرعان ما شعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه بان يشن حرباً لا هوادة فيها على جميع هذه الآفات .

ولا ريب ان قيمة الكتاب تقوم على فكرة الرواية، لا على الفن القصصي فيها . فلا شك في ان المؤلف يعكس نفسية جيل باكمله حين يدرس نفسيّة جلال ، ولكنه يعمد ، من اجل ذلك ، الى طريقة تقريرية تحرم الرواية كل قيمة فنية : ذلك ان النصائح والمواعظ والدروس الاخلاقية التي تفيض بها تستنفد القارىء ، آخر الامر . واما الحادثة العاطفية التي ترافق الرواية فهي من التفكك بحيث ان حذفها لايضرّ بالرواية .

ثم اننا نجد روح جلال حاضرة في جميع اثار محمود احمد اللاحقة . فان مجموعة « الطلائع : صور واحاديث » (١٩٢٨) تحوي اصداء من الرواية الاولى . مثال ذلك « الطالب الطريد » التي تروي قصة طالب فقير طرده مدير المدرسة اثر مشاحنة حدثت بينه وبين طالب غني . والجدير بالذكر ان المؤلف قد تناول هذه الاقصوصة ، في مجموعة تالية ، ليكسبها معنى اجتماعياً ابعد واعمق ، فاننا نرى هذا الطالب نفسه ، بعد بضعة اعوام يلتحق بمصنع يعمل فيه ليكسب عيشه ، ونلمس ان اعتزازه وحسه بالجدارة الانسانية هما من القوة بحيث انه لا يتردد في ضرب صاحب المصنع الذي كان يعامله معاملة سيئة . وقد سيق طبعاً الى السجن ، ولكن ليس لذلك اية اهمية . فان فكرة المؤلف واضحة : سيخرج صاحبنا من السجن يوماً ، ولكنه يكون قد امتلأ احساساً بالظلم وانتفاء العدل الاجتماعي ، وهو لن يقصر في التفكير بالثورة واقناع الناس بها .

وهكذا لا تقوم قيمة هذه الاقصوصة على حادثتها بالذات ، وانما على ما توحيه وتستشرفه من امكانيات . واقصوصتا « الامل المحطم » و« مجاهدون » تستمدان فكرتهما من الينبوع نفسه فتصوّر الاولى يأس الفرار ، الحل الذي ترتضيه النفوس الحائرة ، وتصور الثانية قلق فريق من الشبان الذين يحلمون باصدار جريدة ، ولكن المال كان ينقصهم . غير ان شدة ايمانهم بمشروعهم كان يحجب عنهم هذه الحقيقة ، فلا يجدون الا ان يتهم بعضهم بعضا بالاهمال والكسل .

وفي المجموعة بعد ذلك اقاصيص هي اقرب الى الصور مثل « انقلاب » و « جماح هوى » التي تصور تفتح عاطفة جنسية لدى مراهق ، و « أوَ تسهرين ؟ » و « رسالة هجر » وكلتاهما تتناول قصة علاقات تشترك فيها امرأة بغي .

ولعل خير آثار محمود احمد السيد مجموعته « في ساع من الزمن » (١٩٣٥) ففيها تصوير صادق لبعض المظاهر الاجتماعية في العراق : « عاتكة » امرأة هجرها عشيقها فسقطت في الرذيلة؛ « طالب افندي » رئيس قبيلة يعشق راقصة ؛ و « رصاصة في الفضاء » تصور نموذجاً آخر من هذا الجيل القلق الذي يؤثر احياناً الضياع ويسعى اليه بسبب انه لا يتمكن من التعبير عن عاطفته القومية .

اما اقصوصة « باداي الفايز » فهي اجمل اقاصيص الكتاب ، ولعلها من اجمل الاقاصيص العربية الحديثة . انها تصور لنا الحياة الحائرة التي تسوقها قبائل الفلاحين التي تعيش على ضفتي نهر الفرات ، وتصور اخلاق هولاء الفلاحين اصدق تصوير . فباداي شاب عزيز النفس يرفض ، كما يرفض رفاقه ، ان يسيء مالك الارض معاملته . وقد ثار يوماً على سيده حين اصابته ضربة من عصاه ، ولكن هذا السيد سخر به وعيّره بجبنه يوم امتنع عن الانتقام لاخيه اذ قتله جاسم احد رجال القبيلة المجاورة. وقد احس باداي بكرامته تجرح ، فعزم على ان يقتل « جاسم » . وقد ترصده بالفعل في الليلة التالية امام خيمته ، ولكن النهر فاض فجأة فحطم الجسور والسدو، وغمر الارض التي كانت تقوم عليها قبيلة جاسم . وحين رأى باداي عدوه يكافح من اجل انقاذ اسرته ، اقبل يعينه ، فحمل احد اولاده الى مكان امين . ثم عاد الى بيته دون ان يحقق ما جاء من اجله . وما لبثت قبيلة جاسم ان اقامت سداً جديداً وعادت

الى ارضهـــا ثم قامت المساعي للصلح بين الرجلين. ولم يتردد جاسم في ان يقدم اخته لباداي الذي تزوجها. ومنذ ذاك الحين لم يبق احد يجرؤ على ان يعيّر باداي بانه جبان.

وقد وفق المؤلف، في هذه الاقصوصة، الى ما لم يوفق اليه في اقاصيصه السابقة من الناحية الفنية. فان شخصياته هنا حية واضحة الخطوط، وسرده طبيعي لاتكلف فيـه، واسلوب الموعظة الذي يشهـده القارىء في آثاره السابقة، غير موجود هنا، فضلاً عن ان العادات مرسومة رسماً جيداً، وخلق العفو عند المقدرة الذي يمتاز به العربي اجمالاً موصوف بصدق كبير.

وفي هذه المرحلة البدائية من تاريخ القصة العراقية الحديثة صدر كتابان لانور شاؤول باسم « الحصاد الاول » (١٩٣٠) و « الحصاد الثاني » (١٩٣٦) وهذا الاخير مجموعة اقاصيص مترجمة واما الاول فيضم اقاصيص موضوعـة يبدو المؤلف فيها وهو يحاول ان يعي مهمته كقصاص. وقد جاء في مقدمته:

« ان حصادي هذا لم يخل من متاعب وعقبات، لاني لست سوى احد القصصيين العراقيين الذين يحاولون خلق القصة العراقيـة من العدم، لست سوى « كشاف » امهد الطريق لهذا الضرب من الادب البالغ الذي اصبح له من سيطرته في عالم النشر مقـام سام وفضل لاينكر ». ثم يعرض المؤلف للصعوبات التي يجدها الكاتب العراقي في اختيار موضوعاته فيقول: « ليس مجهولا لدينا ان مجتمعنا ما زال ضمن حدود ضيقة، وان الحرية الفكرية ما زالت في افق اعتم. وان الجمهور لم يتعود استماع قارص اللوم ومر الانتقاد يفرغه الكتاب القصصيون في صلب قصصهم ... »

وبعد ان يبوب قصص كتابه، ينتقل الى معالجة قضية الجو العراقي وامكانياته القصصية فيقول:

«ارى ان هناك دعوى كثيراً ما يتبجح بها بعض المتأدبين مفادها ان الجو العراقي لايصلح لتكوين القصة، اذ ليس عندنا ما يسهل ملتقيات الحب وتكثير حوادثه التي يجب ان تـكون محوراً لدوران القصة العراقية. انني ازاء هذه الدعوى لايسعني، مع اقراري بقحول التربة الغرامية، الا ان اعلن خطلها وبعدها عن الصواب، اذ ان القصة لاتقوم على القبلات الحارة يتبادلها العشيقان، او على لواعج الهوى يبثها الحبيبان فحسب، انما تستمد عناصرها من المجتمع بما فيه من عادات، تقاليد، مبادىء، اخلاق وآداب، وبما فيه من نقص او انحطاط، او ارتبـاك او غير ذلك مما يلفت نظر القصصي ويستدعيه للاصلاح ... »

هذه المقدمة لاتخلو من اهمية. فاذا تعمقناها رأينا ان المؤلف قد اختط فيها نهجاً له في معالجة القصة. ولكن الذي يؤسف له انه لم يحقق هـــذا النهج في مجموعته، لانها لاتضم بالاجمال الا حكايات سريعة هي تلخيص لروايات كبيرة، لا قصص فنيـة مركـزة. ثم انها تخضع لاهمال وسهولة بارزين، وتخلو من كل ابداع. فالمؤلف يروي بلغة جيّدة غالباً، ولكنها غير مؤثرة، حكايات بسيطة او غريبة لا تحمل معنى قوياً او تدل على اتجاه هام: قصة فتاة ترفض الزواج بالرجل الذي اختاره لها ذووها لتتزوج حبيبها (بنفسجة)، وابن سفاح لايعرف الا في عهد متأخر جداً حقيقة هويته (اللقيط) وامرأة تخنق ابنتها الخامسة بعد مولدها، بدافـــع من زوجها، فتتقطع لذلك حسرات (هذيان زوجة) وزوج ينتهي الى الجنون لفرط ادمانه على الخمر (سكر فجنون)، وزوجة تحسب ان زوجها قتل في المعركة فتتزوج سواه، وحين يعود الاول، تصاب بالجنون (المجنونة). وهناك قصص خاليـــة من اي معنى مثل « ضياع الاثنتين » و « مشاهد ليلة » و « المقامر » و « صفقة خاسرة » الخ ... اما التصوير الاجتماعي الصادق فنكاد لا نجـده الا في « نفنوف العيد »، التي تروي قصـة ام تسرق لتشتري لطفلتها ثوباً ليوم العيد، وفي « آمال ممزقة »، التي تعبر تعبيراً ضعيفاً جداً عن القلق المستحوذ على الشبان الساعين وراء مثل أعـلى مفقود. ومعظم القصص في الحق تفتقر الى السمة الخاصة وتسقط في العـــادي العمومي، فاذا اضيف الى ذلك انعدام التحليل النفسي ظهرت بشكل اوضح القيمة الضئيلة لهذه القصص.

وقد جرت العادة على اعتبار انور شاؤول من رواد القصة العراقية الى جانب محمود السيد. اما نحن فنشبهه بالمنفلوطي في مصر. فبالرغم من ظهور كل منهما في جيل الرواد، فان تأثيرهما في خلق الأدب القصصي ضعيف جداً.

ب. المرحلة الثانية

يتضح مما تقدم ان المرحلة الاولى في نشوء الأدب القصصي بالعراق هي مرحلة تحسس وتلمّس. فان في آثار السيد لهجـة وعظ تقريرية أضرت بالناحية الفنية من قصته. اما انور شاؤول الذي حاول ان يسبغ على قصته طابعاً فنياً أوضح، فقد كانت معظم أقاصيصه غثة باردة.

اما المرحلة الثانية التي تبـدأ مع القصاص ذو النون ايوب حوالي ١٩٣٦، فقد حاولت ان تقيم القصة العراقية الحديثة على اسس أثبت وأركان أمتن. ذلك ان جل الروائيين والقصاصين الذين ظهروا فيها، سعوا الى انتاج أدب حيّ يجمع الى حاجات الواقع الاجتماعية، حاجات الفن ومقوماته. والواقع اننـــا نشهد في هذه المرحلة ولادة آثار فنيـة تشبه الآثار المصرية او اللبنانية التي صدرت في ذلك العهد بفرق واحد، هو ان الآثار العراقية ظهرت إثر فترة أقصر من فترات التطور.

وأهم هذه الآثار ولا ريب مـا كتبه ذو النون ايوب في

الرواية والاقصوصة ، وهو دون شك اغزر كتاب القصة في العراق. فقد اصدر حتى ١٩٥٢ روايتين طويلتين واحدى عشرة مجموعة من الاقاصيص.

وطريقة المؤلف في تقديم أبطاله تعتمد على الحركة والعمل ، لا على التحليل والوصف . فان حركاتهم وتصرفاتهم هي التي تكشف عن اعماق نفسياتهم . ويبلغ ايوب في ذلك درجة طيبة من التوفيق والنجاح. ويتبع مجموع آثاره القصصية تطوراً هاماً يتعاقب فيه التحسن ويطّرد التقدم .

والملاحظ في مجاميعه القصصية ان كل مجموعة تتناول لوناً من الافكار يربط بين مختلف المواضيع : فبينما تصور المجموعة الاولى « رسل الثقافة » (١٩٣٦) كفاح هذه الطبقة المثقفة التي تتألف من المعلمين والاساتذة، تقدم لنا المجموعة الثانية «الضحايا» (١٩٣٧) نماذج من هؤلاء الذين يسقطون صرعى التقاليد والأوهام التي تطغى على المجتمع فتفسده . فهذه امرأة لا يمنعها ذكاؤها الألمعي من ان تسقط في الرذيلة (اقصوصة «ساقطة»)، وتلك فتاة تنتحر لأن ذويها يفرضون عليها الزواج بشيخ مسن ولكنها تسلك (طريق الخلاص) ، وتلك ايضاً فتاة لا يتردد اخوها في قتلها إذ يراها تتحدث إلى جارٍ لها (شرف) . على ان لهجة النقد الاجتماعي تبدو اكثر اضماراً في مجموعته « صديقي » (١٩٣٨) وهي تضم بضع صور لأبطال ثائرين على التقاليد والقيود الاجتماعية . فأقصوصة « عندما تثور العاصفة » تقدم لنا موظفاً برماً بقيود وظيفته ومتطلباتها . حتى إذا صرف من الخدمة ، وهذا ما كان ينتظره بفارغ صبر ، انخرط في العمل الحر ، ولم يتردد في ان يعمل سائق سيارة ليكسب حياته «بنبل وشرف» ويعيل بعد ذلك خمسة عاطلين عن العمل . وفي هذه الاقصوصة حسّ فكاهي دقيق يجعل لها قيمة خاصة. واما «النهاية» و «تمرد» فتضمان آراء كاملة في فلسفة الثورة على أكاذيب المجتمع . وفي مجموعة «وحي الفن» (١٩٣٨) نلتقي بشخصيات تكاد تكون غريبة ، وهي شخصيات أتعبها الفساد وملأها المجتمع المزيف تبرماً بالحياة ، فسعت إلى التماس السلوى والهرب من الواقع بالانغمار في دنيا الفن . ونقرأ هنا احدى روائع المؤلف القصصية « حلم على نغم » التي تروي قصة تكوّن حلم على نغمات مقطوعة ريمسكي كورسكوف الشهيرة « شهرزاد » ، فان حركات هذه الموسيقى تعبر في ذلك الحلم عن مختلف مظاهر الفساد في السياسة الحكومية، حتى تبلغ نهاية المقطوعة «غرق باخرة السندباد» وهي ذات مغزى بعيد .

وفي مجموعة «الكادحون» (١٩٣٩) يستغرق ايوب في طبقة العمال والفلاحين الذين يهدي اليهم كتابه على انهم « منبع ثروة العراق» ، وهو يختارهم جميعهم تقريباً من الريف او من سكان شواطىء النهر، كساحب المراكب، ذلك المسكين، الذي يعصى على اشد الاخطار ويقهرها ليموت آخر الأمر أتفه ميتة ، او كذلك الثائر الذي يحرز مع رفاقه ، في إحدى معاركهم ضد الانكليز ، نصراً رائعاً ولكنه لا يلبث ان يهلك في معركة ضد الجنود العراقيين انفسهم. وأقصوصة « المشنقة » في هذه المجموعة نفسها اقصوصة بديعة تستحق اهتماماً خاصاً، ولا سيما ان الحس الفكاهي الذي يتخللها يحمل في صميم ذاته حس الفجيعة :

ألقي حزباوي، الذي ثار على جنود الحكومة ، في السجن. وهناك راح يستعيد حياته الماضية، فاذا هو يفضل هذا السجن على كوخه الصغير الذي احترق ذات يوم. والذي آلمه من ذلك كله ان امرأته قد هلكت في الحريق . وقد دعاه بعد ذلك رئيس القبيلة الى مأدبة اجتمع فيها اناس كثيرون، فأكلوا كما لم يأكلوا من قبل ابداً ، ثم دعوا الى ان يقوموا بثورة ، فلم يتردد احد منهم في تلبية الدعوة . ومن سوء حظ حزباوي انه ألقي القبض عليه مع بعض رفاقه . اما الآن، وهو في السجن، فهو يشعر انه لم يقم بالثورة الا ليخفف الاشجان التي خلفها في نفسه احتراق منزله وامرأته . وها هم يحدثونه الآن عن « المشنقة »، ولكن ما هي المشنقة ؟ انه لم يسمع احداً يتحدث عنها طوال اقامته في كوخه ! فهل تكون المشنقة اختراعاً كالسيارة او كالقطار الحديدي ؟ وفي اليوم التالي أتى من يخلي سبيله ، فلم يفهم من أمره شيئاً... وسأل حارساً : لماذا أخلوا سبيله ؟ فأجابه : لقد شنقتَ وانتهى الأمر . وهكذا خرج حزباوي من الثورة، وفي رأسه بضعة اسرار لم يجد لها حلاً : لماذا ثار ؟ لماذا حكم عليه بالاعدام ؟ ما هي المشنقة ؟ وكيف يشنقون محكوماً عليه فلا يموت ؟ أسئلة ستظل مزروعة في رأسه حتى يتزوج من جديد ، ويومذاك ينسى امرأته الميتة والثورة وشقاءها .

إن في هذه القصة صورة صادقة جداً لسذاجة القروي وطاعته العمياء، واستسلامه الكلي ، ولاسيما انعدام اي مثل اعلى له . أوليس في اللهجة الفكاهية التي ادير بها القصة حس تراجيدي عميق لمصير هذا الكائن الأعمى ؟ ذلك الاستسلام الذي يبدو لوناً من الاهانة هو ايضاً موضوع قصة اخرى تحمل عنوان « آلام مزمنة » وتدور حول تلك الآلام التي يتحملها الشعب بصبر عجيب حقاً.

« للبحث صلة »

سهيل ادريس